عبقرية العواصم المغربية الممتازة

سلطان الطلبة

بمناسبة تتويجه في ربيع هذا العام

للأستاذ إدريس الكتاني

سيبدو هذا العنوان غريباً عن إخواننا في الشرق . وليس عجيباً هذا ، فالمغرب نفسه — لا تاريخه فحسب — غريب في نظر بعض الشرقيين عن الشرق . أما نحن هنا فليس منا من لا يعد المغرب قطعة من الشرق العربي ، وجزءاً لا يتجزأ من الجامعة الإسلامية الكبرى . فعسى أن يعمل إخواننا الشرقيون على هذا الاعتبار ، ويقلعوا عن تجاهلنا وتناسينا في وقت نحن فيه الشرق — ومصر في الطليعة — محط أنظارنا وكعبة معارفنا ؛ ونتطلع إليه كالمنحط في أسفل الوادي يروم معرفة ما فوق الروابي التي تعلوه

عفا الله عنا وعنكم يا إخواننا المصريين اكلانا مقصر نحو أخيه، ولكن ما عذركم أنتم — وقد أتيح لكم أكثر من ذي قبل — أن تقولوا وتعملوا عملاً صالحاً ، وأن تمدوا يد الإسعاف لهذا الشرق العاني فتوقظوه من غفوته ؟ إن اليد الضعيفة مع أختها يد قوية ، وهي مع أخواتها الضعيفات أشد وأقوى . قد والله نثقل كثيراً ولكننا لا نعمل إلا ونحن جهلاء ... عفا الله عنا ...

في تاريخ الحياة العلمية بالمغرب الأقصى — يجعل المغاربة دائماً يفخرون بأمجاد الأجداد ، ويعترفون بما خلفه ملوك العرب وأمراء الإسلام من المآثر الخالدة بهذه البلاد العربية الإسلامية . وفي الحق أن الدول التي تعاقبت على المغرب لا يخلو تاريخها من حسنات شتى في مصالح البلاد العامة . وكم نجد لهم في خصوص النواحي العلمية من اهتمام خاص بالعلم والعلماء والأدب والأدباء ؛ ولكن الذي يؤسف له حقاً أن الكتب التاريخية لا تزال حتى الآن موضوعة على الرفوف أو مدفونة في الخزائن تلعب بها الأيدي

جانب من موكب (سلطان الطلبة) وعلى الصورة إعداؤه إلى الرسالة بخطه

الجاهلة إذ تتركها غذاء للأرضة ، وملعباً للخفافيش والعناكب

وليس يهمنا الآن أن نلم بجميع ما لتلك الدول من المفاخر الخاصة بنشر التعليم وتشجيع طلابه ، فهذا ما يملأ كتباً عدة ، وحسبنا من ذلك أن نأتي بوصف أحد تلك المظاهر (المتازة) فهذه وحدها دليل ساطع على الشعور الكامن من قديم في نفوس ملوكنا نحو بث التعليم ونهضة الحياة العلمية . ويلاحظ على الخصوص في هذه الظاهرة مبلغ تعمق ملوكنا في فهم نفسية رعاياهم، وكيف ينفذون إلى قلوبهم فيملكون إحساسها بعبقريتهم الفذة ...

في ربيع كل عام من بدء ثلاثة قرون مضت يقيم طلاب العلم بفاس ومراكش « سلطنة » رسمية لها أبهة السلطان وجلال العلم ، تدوم سبعة أيام ؛ ثم في اليوم الثامن تنقوض وتنهار ويعود سلطان الطلبة بعد سلطنة أسبوع طالباً عادياً كما كان قبل أسبوع فقط !

واشتط في الإذعان؛ وخيل إليه ذات ليلة أنه سيأتي بلقيس، فكتب إلى صديق له : « لا تنتظرني هذا المساء ؛ فإن الليل سيكون أسود أبيض » ثم هام على وجهه في طرقات باريس ذاهلاً حتى انتهى به السير إلى مكان فيه أقذار وأوساخ فطاب له الجلوس عنده . فلما وهن الليل سمع غراباً ينعق ... فحسب أنه رسول بلقيس الحبيبة إليه ، فناداه وحدثه . ثم قام إلى نافذة فربط بها حبلاً علقه في عنقه ونادى : « هأنذا قادم إليك.» وما هي إلا ساعات حتى فاضت روحه وانتهت مأساته بعد أن قضى سبعة وأربعين عاماً يقظان حالماً . . . وخلف لنا آثاراً مملوءة بالحسن من الوصف والفريد من المعاني .

صنوج السيد المنيعي

هذه أدوار فكاهية طريفة تقوم بها الحكومة الغربية رسمياً في أواخر فصل الربيع من كل سنة، وهي عادة بلد لنسائح الأجنبي أن يشاهدها ويسجل شتى مظاهرها، وقد تسلسل العمل بها منذ القرن الحادي عشر دون أن يحدث ما يمنع سيرها المعتاد

والحديث عن هذه السلطنة يجره إلى أفواه الطلبة طلائع أيام نيسان التي تتفتح فيها الطبيعة عن أكمامها، وتبتسم الأغصان عن أزهارها، وتحلو الحياة لأبنائها

فإذا هجم نيسان نشوان طروباً يجر أثوابه الخضراء اليانعة، هب طلبة القرويين بفاس وطلبة الكلية اليوسفية بمراكش يطلبون من جلالة الملك الإذن لهم في إقامة سلطنتهم السنوية. وعند الترخيص لهم بذلك يجتمعون على انفراد بإحدى مدارسهم التي يسكنونها، ثم يقوم « مقدم » المدرسة منادياً ببيع « سلطنة الطلبة » بالمزاد العلني، ولكل طالب الحق في أن يبتاعها لنفسه مادام يستطيع أن يزيد في ثمنها على غيره، فإذا انتهت فيها الرغائب ووقف ثمنها على طالب ما، سجل العدليان الشرعيان اللذان يحضران هذا المزاد هذا البيع على الطالب المشترى، ثم ينفض جمع الطلاب معلنين سلطانهم. أما ثمن هذه « السلطنة » فيتراوح غالباً بين ١٠٠٠٠ و ٥٠٠٠ فرنك. ويلاحظ أن شراءها خاص بالطلبة الغرباء عن البلد محظور على غيرهم. ولعل هذا الامتياز قصد إليه لترغيب أهالي البادية والحواضر النائية في ورود منهل العلم من كليتي القرويين وابن يوسف، وتشجيعهم عليه بإدخال أسباب الغبطة والانشراح إلى صدورهم

أما مهمة هذه « السلطنة » فهي قيام (سلطان الطلبة) على رأس رعاياه في موكب رسمي حافل، بنزهة على شط وادي الجواهر بضواحي فاس[1] وهذا الموكب في هيئته المؤلف منها صورة مصغرة لموكب صاحب الجلالة ملك الغرب مولاي محمد الخامس أيده الله

ويقوم « سلطان الطلبة » على أثر تعيينه بتأليف هيئة حكومته من نخبة أصدقائه الطلاب ومن بينهم وزير للمالية ومحتسب بارع في الهزل والنكات الفكاهية

وفي أول جمعة تلي ذلك ترسل الحكومة الغربية لسلطان الطلبة كسوة فاخرة وتقوم بتنظيم موكبه الرسمي. وعند الساعة الحادية عشرة يتحرك هذا الموكب من المدرسة التي يتفق أن سلطان الطلبة ساكن بها، فيركب هو جواداً مطهماً وترفع الظلة الملكية « الشمسية » فوق رأسه ومن حوله الحراب تحملها الشرطة، وتتقدمه موسيقى عسكرية ثم قواد (المشوّر) فرساناً حاملين السيوف، وتتلوه حاشيته وجمهور غفير من رعاياه الطلبة مشاةً على الأرجل، ثم أصحاب الطبول والمزامير، ويحيط بالجميع من اليمين إلى الشمال سلسلتان من الشرطة والمسس ومقدمي الحارات، ويخترق الموكب الأزقة والشوارع سائراً بين أمواج صاخبة من الأهالي إلى أن يصل إلى جامع الأندلس فيؤدي السلطان به صلاة الجمعة. ثم يتابع الموكب سيره لزيارة ضريح السلطان الأعظم مؤسس عرش الدولة العلوية الشريفة المولى الرشيد سنة (١٠٤٠ — ١٠٨٣ هـ) بداخل قبة الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم بمقبرة الغرباء خارج باب الفتوح، وهذا السلطان هو الذي سن للطلبة هذه « السلطنة » وحباهم بعطفه الكبير فهم يزورون ضريحه أولاً قياماً بواجب شكره وتذكاراً لعهده اللامع. وعند المساء بعد صلاة العصر يعود موكب « سلطان الطلبة » من حيث أتى وبنا الوجوه تطفح بشراً، والنساء يملأن السطوح بزغاريدهن المازحة العابثة

وفي عشية اليوم التالي يخرج « سلطان الطلبة » في موكبه الرسمي كهيئته الأولى قاصداً إحدى ضواحي المدينة حيث ضربت خيام « دولة الطلبة » بسهول خضراء على ضفاف وادي الجواهر يتوسطها سرادق كبير لسلطان الطلبة وحاشيته. وتقدر هذه الخيام بنحو الثلاثة غالباً خصون منها للحكومة، وهذه خاصة بالطلبة تضم كل منها جماعة من بينهم، وباقي الخيام للأهالي الذين يلذ لهم أن يقضوا نزهتهم الربيعية بجوار « دولة الطلبة » التي تعيش أسبوعاً واحداً، وقد يرخص لها بزيادة أسبوع آخر.

وتقوم واردات الميزانية العامة لهذه « الدولة » المحدودة بالزمان والمكان من :

١ — ثمن « السلطنة » الذي يدفعه « سلطان الطلبة »

(١) ومثل هذا يكون بمدينة مراكش

على أن تتعهد له الحكومة فى مقابل ذلك بإجابة طلب يتقدم به إليها كإطلاق سراح مسجون له ، أو جعله موظفاً فى بعض الإدرات ونحو هذا .

٢ — الهدايا التى يقدمها جلالة الملك إلى الطلبة باسم سلطانهم ، وتتكون هذه عادة من الأكباش وأكياس الحنطة وأكياس من السكر وغيرها ، ومن المال أيضاً .

٣ — الهدايا التى يتقدم بها الأهلون إليهم عن طيب نفس .

٤ — الضرائب التى يجبيها « سلطان الطلبة » من وجوه البلاد وتجارها بواسطة (ظهائر) موقعة بإمضائه والتى يؤديها هؤلاء بكل سرور .

٥ — (الذعائر) التى تجمع بواسطة « محتسب » سلطنتهم الماجن الذى يرتدى حلة فى شكل مضحك ، ويجعل فى عنقه سبحة من التين يلتهم منها الواحدة بعد الأخرى من حين إلى آخر ، ثم يتجول فى شوارع المدينة راكباً بغلة ، وواضعاً فى حجره صندوقاً مغلقاً يظل يملؤه — من ثقب فيه — بالفرنكات والريالات (كذعيرة) يفرضها على التجار والبقالين بزعم أنه وجد فى مبيعاتهم غشاً يعاقب على ارتكابه

وفى خلال أسبوع هذه « السلطنة » ينصرف الطلاب جميعاً للمرح واللهو بقلوبهم وعقولهم معاً ، ويقبلون على حياة بعيدة عن حياة الجامعة فيها متعة النفس وصفاء الحديث وطرب القلب .

فإذا مضت ستة أيام وأقبل يوم الأربعاء ، تهيأت « أمة الطلبة » حكومة وشعباً لاستقبال جلالة الملك أو خليفته — إن لم يكن هو فى البلد — الذى يشرف مملكتهم الصغيرة فى موكب عظيم ليقدم لهم هداياه الخاصة ، وفى العشية ينتظر « سلطان الطلبة » مع هيئة حكومته سلطان المغرب الفدى ؛ حتى إذا لاح موكبه عن قرب ترجل الأول عن فرسه . وتقدم إلى السلطان الأعظم مطأطئاً رأسه ، فيقبل يده الكريمة ، ويرفع إليه الكتاب المتضمن طلبه الخاص الذى يؤمل من جلالته الأمر بتنفيذه ، ثم يرجع إلى الوراء فيركب فرسه ، ويتقدم إلى أن يقف قريباً منه

وهنا تتمثل لنا الديمقراطية الحق فى ملوكنا الذين ورثوها كابراً عن كابر . ففى هذه الساعة يتنازل « سلطان المملكة الغربية » فيتحدث إلى « سلطان الطلبة » بكل تواضع حديثاً تمليه العاطفة ، وتوحيه الرغبة الصادقة فى بعث النهضة العلمية . وفوق ذلك يتنازل لسماع حديث دعابة ومزاح ممتع من محتسب سلطان الطلبة الحاذق فى الفكاهة والمجون . فإن هذا يتقدم من جلالة الملك ويخاطبه بصوت جهورى أمام ألوف من الناس بنحو قوله : كيف استطعت وأنت ملك كبير الملوك العادلين أن تقف بجانب أكبر ملك فى الدنيا تخضع لأوامره ملايين من القمل والذباب والضفادع والبراغيث وغيرها من الهوام والحشرات ؟ فيرد عليه جلالة الملك بنكتة رقيقة تمثل سمو المزل عند الملوك ، ويبارع سلطان الطلبة فيعرب عن قبوله لجلالته ضيفاً فى مملكته ويرحب به باسم أمته أكبر الترحيب . ثم يقوم المحتسب الماجن فيلقى أمام السلطانين ورعاياهما خطبتين ضاحكتين عابثتين فى الإشادة « بالزردة » والتنويه بالأطعمة الفاخرة

وعند الفراغ من هذه المظاهرة الرائعة يستأذن جلالة الملك من سلطان الطلبة فى الرجوع فيأذن له بعد أداء الاحترام الواجب ويعود جلالته فى موكبه الفخم إلى قصره العامر

وفى الجمعة التالية يقوم سلطان الطلبة فى موكبه بأداء صلاة الجمعة فى جامع أبى الجنود ، ثم يرجع لقر دولته التى لا يبقى على انهيارها إلا يوم واحد . ففى مساء اليوم التالى يكون الطلبة على أهبة الرجوع لمدارسهم حيث تستأنف الدراسة بالكلية صباح يوم الأحد

ويدهشك بل يغريك بالضحك الذى لا تملك معه نفسك أن تجد الطلاب صباح يوم السبت يبحثون عن سلطانهم فلا يجدونه . لقد فرّ ليلة هذا اليوم مختفياً بين غضون ظلامها القاتم خوف أن يصبح على أبواب ثورة عامة من رعيته التى يلذ لها أن تنقض عليه يوم انتهاء سلطنته حتى لا يدخل إلى نفسه شيطانها فيوهمها أنه حقاً « سلطان الطلبة » وأن واجباً عليهم أن يخضعوا له ويقروا بسلطانه عليهم

هذه هى الرواية التمثيلية التى ألفها السلطان « مولاى الرشيد » لطلبة العلم وبعثهم على تمثيلها بأنفسهم كل سنة على مسرح الحياة لكى يعطيهم درساً عملياً فى التدريب والتمرين على أن يكونوا

رجالاً أكفاء مقتدرين لهم ما للناس في الحياة من حق

وفي ظني أنه لو كان معروفاً لدى حكومتنا الماضية نظام الكشافة الحديث ، لما جعلوا غير الفرق الكشفية مع موسيقاها الندية جنداً وحراساً لموكب « سلطان الطلبة » حرصاً على أن يكون المظهر طالبياً بحتاً ، يمثل أمة في الطلبة بسلطانها ، وجندها وموسيقاها ، وفي هذا وحده من الروعة والمظهر الجذاب ما يشوق الأبناء إلى التعلم ويبعث الآباء على تشجيعهم عليه بالبذل والسخاء . أما الآن ، فالمستقبل كفيل بأن يكون هذا وأكثر من هذا . وعسى أن ينتبه الطلبة من الآن إلى هذه النقطة الدقيقة فيؤلفوا من بينهم فرقاً كشفية تقوم بهذه المهمة ، فوق أنها تكون عضواً عاملاً في النهضة المغربية الحديثة .

هذه رواية ناطقة أتينا على وصفها معتمدين على ما شاهدناه ، وسمعناه ، لا على ما قرأناه . فإن تاريخ نشوء هذه « السلطنة » والأسباب التي دعت إليها ووصف مناظرها ومظاهرها المتنوعة ، كل هذا طواه الزمن في مهملات التاريخ. وما أكثر ما أهمل التاريخ وليت شعري ما الذي حدا بالمؤرخين المغاربة إلى عدم الاكتراث بهذه المنقبة الخالدة ؟ أكبر الظن عندي أن هؤلاء اطمأنوا إلى بقائها وخلودها مشاهدة أكثر من اطمئنانهم إلى بقاء مؤلفاتهم التاريخية فاعتمدوا على ذلك ولم يكتبوا ومن يدري؟ فلعلهم كتبوا وأضعنا نحن فهلنا ، وأيّاً كان الأمر فإن اطمئنانهم إلى بقاء « سلطنة الطلبة » قد صدق وسيبقى صادقاً إلى الأبد . ولا أنكر فهناك في بعض الكتب لمحة برقية وعلى الأفواه أسطورة تاريخية وعندي أطروفة فكاهية ، فإذا سنحت الفرصة سأقص خرافتي وإلى اللقاء يا قرائي وقارئاتي في الشرق الحبيب

« فاس — المغرب » ادريس الكتاني